تيمة التصوف وأبعاده الإنسانية
في رواية سفر السالكين لمحمد مفلاح.

د.خليفي سعيد
المركز الجامعي غليزان

Abstract
Known Sufi heritage of the Algerian nation since the first centuries of Islamic open to the Maghreb, religious and cultural and humanitarian dimensions, has been associated with the components belonging to the Islamic Arab nation on the one hand, the geographical location in which it controls the Privacy Maghreb capita Algerian ever Tamazight assets, as the original inhabitants of this the regions, and strikes me Algerian model his presence in novel writing record over the last four decades, during which sank deep into Algerian society record their hopes and pains, and evokes championships and glories, and stops at the various stations arthropod, making them hotbeds narrative inspired by them Article Gaiah, a writer Algerian novelist Mohammed Meflah, and perhaps his novel before The last issued in 2014 "Safar es-salikine" with secured mystic, which scored a victory spiritual Extractor on the desires of self and pleasures, one of the most prominent production novelist, which enters its content within this cultural heritage and given the cultural broad cross-section of Algerian society, past and present, represented spiritual authority over date extended, as we read in this novel images of the subtleties of faith and Alinvhat felt by the human psyche when it disputes such as the serenity and purity, purity, Vtzmo them to the world of Antioch Tahir, and moreover are witnessing interview stations, it was full of a lot of trouble and difficulties in order to achieve comfort, tranquility and stability psychological, to be guided in the final to that salvation lies in the travel path of obedience to God and discontinuity, which is for those who know and who walk approach in every time and place, hence this form of spiritual-denominated global dimension is valid for all mankind…

تزامن ظهور الفكر الصوفي في بلاد المغرب مع البدايات الأولى للفتح الإسلامي، وبدأ يأخذ أبعادا دينيّة وحضاريّة وإنسانيّة، وقد ارتبط بالمقومات الجزائرية وانتمائها الحضاري للأمة العربيّة الإسلامية من جهة، وبالموقع الجغرافي الذي تتحكم فيه الخصوصية المغاربية للفرد الجزائري ذي الأصول الأمازغية، باعتبارهم السكان الأصليين لهذه الأمصار، ويستوقفني نموذج جزائريّ سجّل حضوره في الكتابة الرّوائيّة على مدار أربعة عقود الأخيرة، غاص خلالها في عمق المجتمع الجزائري يسجّل آماله وآلامه، ويستحضر بطولاته وأمجاده، ويتوقّف عند مختلف محطاته المفصليّة، جاعلاً منها بؤراً سرديّة يستلهم منها مادّته الحكائيّة، وهو الكاتب الروائي الجزائري محمد مفلاح، ولعلّ روايته الموسومة "سفر السالكين" والتي صدرت سنة 2014 ذات المضمون الصوفي الذي يعني المنهج أو الطريق الذي يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب النواهي، وتربية النفس وتزكيتها، وتطهير القلب من الأخلاق الفاسدة، وتحليته بالخصال الحسنة، وقد سجّل الروائي في هذا المنجز الفني انتصار الوازع الرّوحي على شهوات النّفس وملذّاتها، ويدخل محتواه ضمن هذا الموروث الثقافي والمعطى الحضاري لشريحة عريضة من المجتمع الجزائري قديما وحديثا، مثّلت سلطة روحيّة عبر تاريخه الممتد، حيث نطالع في هذه الرواية صوراً من اللّطائف والنّفحات الإيمانية التي تنتاب النّفس البشريّة حينما تُنازعها مُثُل الصّفاء والنّقاء والطّهر، فتسمو بها إلى العالم النوراني الطاهر، وفضلاً عن ذلك نشهد محطّات مقابلة لذلك، حفلت بالكثير من المتاعب والمصاعب في سبيل تحقيق الراحة والطمأنينة والاستقرار النفسي، لتهتدي في الأخير إلى أن الخلاص يكمن في السفر عبر طريق التصوف الذي يقوم على " التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله، وأكل الحلال، وكفِ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق"(1)، وهو سبيل السّالكين و نهج العارفين في كل زمان ومكان، ومن هنا شكل هذا المقوم الروحي بعدا عالميا صالحا للإنسانية جمعاء ...

الحوار وتجليات المبتغى:

ونعني بالحوار التّفاعل وتبادل الكلام بين متحادثين أو أكثر، بحيث يُسهم كلّ منهما في هذه العمليّة حتّى يتمّ التّواصل " بين شخص متكلّم ينتج ملفوظا موجّها إلى مخاطَب، وهذا المخاطَب يلتمس الاستماع أو الجواب الصّريح أو المضمر حسب نمط الملفوظ "(2)،إنّ الكاتب في هذه الرّواية لا يصرّح بالقول، ولكنه يعرضه بلغة الفنّ المرتبط أساسا بالعاطفة، والتصوف هو عمقُ العاطفة الدينية، ولذلك كان لابد من أن يرتبط بالفن الذى هو بطبيعته تعبير عن هذه العاطفة،وذلك بما تحققه اللغة الروائية ذات الخطاب الصوفي من انزياحات "وفق بناء تسلسل الأفكار في اندماجها النفسي مع المعطى الخارجي بمقدار ما تتقبله الوظيفة العقلية لدلالة التأويل بواسطة الخيال الذي يمنحنا خصوصية حرية التحرك بين فعل مقصدية المعنى وافتراضية التصور"(3)، ومن خلال تقنيّة الحوار الذي يأتي عادة لكسر رتابة السرد والكشف عن الهواجس التي تنتاب الشخصيات الروائية في صراعها وحركيتها "دون أن تعلن عن هوية الذات في استجلاء مضامين الواقع، واستقراء تحولات الحاصر واستطلاع مجاهيل الآتي "(4)، تتكشف لنا العوالم الداخلية لهذه الشحصيات وهي تحاول تقديم ما تختزله في مخيلتها من التبريرات من أجل الإقناع والتأثير، وهذا ما نشهده من خلال الحوار الذي دار بين شخصية "الحاج العربي الشيلي"، وهو يدافع عن أوراد الصوفيّة وفضل زيارة أضرحة الصالحين والتبرك بهم، وبين شخصيّة "رابح اللمة" الرّافض لهذه التّصرّفات معتبرا إيّاها من الشّرك الأكبر قائلا بلهجة سخط شديدة :

"– دعك من هذا الشرك يا الحاج. لقد حذرتك من زيارة القبب والقبور ولكنك عنيد. ربي يهديك.

رد عليه الحاج العربي الشيلي قائلا بضيق:

–أفسدتك الفتاوى المستوردة.

ثم أردف بحزم:

نحن لنا مشايخنا وهم علماء كبار. لسنا في حاجة إلى شيوخ القنوات الفضائية.

وتدخل الهاشمي المشلح قائلا بحماسة:

– وجدت في كتب علمائنا أدلة كثيرة تبيح زيارة الأضرحة، والترحم على سادتنا ومشايخنا.

هتف رابح اللمة بحدة:

قلت لك: هذا شرك يا رجل. هذا شرك. لقد حدثتك عن هذا المنكر ولكنك لم تنصت إلي.

ثم غادر مجلسنا. في اليوم التالي، جاءنا بكتاب وفتحه بعصبية ثم طلب مني أن أقرأ الفقرة التي وضع عليها أصبع سبابة يمناه، فأخذت منه الكتاب وتصفحت عنوانه، ثم شرعت في قراءة الفقرة بصوت عال: "حذرنا الله من عبادة القبور التي اتخذها الناس أوثانا، بعدما شيدوا عليها القصور، ورفعوا فوقها القباب."

قاطع الحاج العربي الشيلي قراءتي، والتفت نحو رابح اللمة قائلا له بلوم:

– ما هذا الكلام يا سي رابح؟ أتعتقد أننا نعبد القبور وأضرحة سادتي الأولياء الصالحين؟ العن الشيطان ودعك من هذه الفتنة. أجدادنا العلماء والفقهاء، عبر كل الأزمنة، لم يحرموا زيارة أضرحة الأولياء الصالحين الذين نشروا الدين الحنيف والعلوم الشرعية، وجاهدوا في سبيل الله وقاوموا الغزاة، وقدموا خدمات جليلة للشعب والوطن.

حرك الهاشمي المشلح ذراعيه بانفعال:

– سادتي الراقدون في هذه الأضرحة هم من أعلام البلاد. أنت تجهل عنهم كل شيء. أنصت إلي. سيدي بومدين عالم جليل ومجاهد شارك في مقاومة الصليبيين، وسيدي الهواري إمام وفقيه شهير، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي كاتب وعالم فقيه، وسيدي الأخضر بن خلوف مجاهد وشاعر شعبي كبير و..

التفت إلي الحاج العربي الشيلي وخاطبني بقوة:

أرجوك لا تقرأ علينا هؤلاء الحاقدين على الصلحاء.

أغلقت الكتاب وأنا أقول باسما:

– اختلط الحابل بالنابل يا أصدقائي.

قال الهاشمي المشلح:

– هذه الأقوال لا أسس لها من الواقع، فالزوار لا يعبدون الأضرحة كما يتوهم مؤلف هذا الكتاب.

وأومأ إلي رابح اللمة، ثم تابع قائلا بسخط.

– هؤلاء الناس يحاولون قطع صلتنا بتراثنا الروحي العريق.

انتفض رابح اللمة، في مكانه وهمس باستغراب:

– أتكذبون عالما جليلا ألف مئة كتاب، وتصدقون أقوال الدراويش والمشعوذين؟

صاح فيه العربي الشيلي:

– قلنا لك أن علماءنا الكبار لم يحرموا زيارة الأضرحة، و لم ينكروا الكرامات، و لم يمنعوا الحضرة الإلهية، مادخل عالمك الجليل في حياتنا نحن الجزائريين؟

وسرد الهاشمي المشلح أقوال وآراء عديد المتصوفة والمفكرين الذين مجدوا التصوف وألفوا عنه، وذكر أسماءهم ومنهم الجنيد، وعبد القادر الجيلي، والغزالي، والقشيري.

تحرك هواري البني في مكانه بعدما رأى أن الفرصة ملائمة للصدع بموقفه فقال:

– العالم اليوم صار قرية صغيرة وأنتم يا أعراب ما زلتم تتصارعون حول آراء متخلفة قال بها فقهاء أو مجرد طُلبة عاشوا في القرون الغابرة. يا للتخلف! انتبهوا إلى أنفسكم يا بشر، وانظروا إلى واقعكم القذر. نحن في زمن جديد، زمن الأنترنت والفضائيات والجيل الثالث، وأنتم – متصوفة سلفية – تتعاركون حول بقايا الماضي الكئيب.

قاطعه رابح اللمة قائلا بغضب:

– أنت علماني خطير، لا يحق لك الحديث عن هذه الأمور الحساسة.

لوح هواري البني ذراعيه في الهواء وخاطب رابح اللمة بلهجة غاضبة:

– وأنت صرت خطيرا حتى على نفسك.

وحرك قبعة البيري على صلعته، ثم أضاف بسخط:

– أنتم في واد وأنا في واد آخر، تحيا العقل الذي حررنا من خرافاتكم."(5)

يمضي الحوار على هذا المنوال بين شخصيّتين تحملان رأيين متناقضين تتخلّلهما آراء أخرى تتبنّى مواقف مختلفة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والملاحظ هو التّمسك بالرأي والتّعصّب له وعدم استطاعة إقناع أحدهم للآخر، وتنتهي الأمور إلى الحقيقة الواقعيّة المعروفة، التي تمثّل مختلف أطياف المجتمع الجزائري خاصة في الفترة الأخيرة، لاسيما بين فئات المتدينين

أنفسهم، بواسطة الخطاب الروائي الصوفي الذي يمثل منفذا سرديا" يمتلك بنية مفتوحة ومتعددة الخطابات "(6)، وبذلك يكون الكاتب قد أعاد صياغة هذا الواقع، وعبّر عن أبرز قضايا الأمة الجزائرية ضمن تمظهرات الخيال الرّوائي بشكل فنّي بعيد عن التقريريّة الفجّة المكوّنة للواقع المعيش...

آلية السرد وتطور الأحداث :

ويظلّ هذا الصراع محتدما بين هاتين الشّخصيتين اللّتين تمثّلان تيّارين دينيّين سجّلا حضورهما القويّ دون أن يتغلّب أحدهما على الآخر أو يهيمن عليه، وبتقدم السّرد الرّوائي إلى الأمام بواسطة أسلوب هادئ يحمل في طيّاته بعض مظاهر المرونة التّعبيريّة، الّتي توحي بتوافق نسبيّ بين بعض الشّخصيّات " ظل الحاج العربي الشيلي يحرص على حضور هذه الطعومات(...)كان يهوى حلقات ذكر الجلالة، وتلاوة القرآن الكريم في باحة ضريح الولي الصالح، وحتى الهاشمي المشلح الذي كان في وقت سابق مغرما بالفروسية والشعر الملحون والغناء البدوي، أصبح من فقراء الطريقة الخضرية الفاتحوية، وغرق في عالم التصوف.رابح اللمة الذي ازداد تعلقا بدروس الشيخ سعيد السلفي، كان يحذرني من حضور هذه الطعومات، فهي في نظره من الشرك. وهو لا يمل من ترديد أقوال الفقهاء والدعاة طالبا مني التخلي عن مشاركتي في كل الوعدات التي تشهدها المنطقة منذ قرون." (7)في إشارة إلى الامتداد التاريخي والبعد الإنساني لهذا المقوم الحضاري في هذه الأرض الطيبة، أرض الجزائر....

وإلى جانب ذلك يظلّ السّرد مستمرًّا في الكشف عن تفكير الشّخصيّات، وما يقع من أحداث، بما يضعنا وجها لوجه مع أحداث أخرى ذات أهمية، يمهّد لها السّرد بشكل سلس يعبّر عن مواقف جديدة على لسان بعض الشّخصيّات "لَمَّا وصلت مدينتي، زرت والدتي فوجدتها جالسة على سجادة زرقاء كانت قد أدت عليها صلاة المغرب. قبلت جبينها العريض الذي خطته التجاعيد فاحتضنتني(...)ثم وضعت يمناها على جبيني وهي ترجوني أن أستريح قليلا"(8)، فمهمّة السّرد هنا إخباريّة تقريريّة لمقوّم أخلاقيّ سلوكيّ تقوم به هذه الشخصية، متمثّل في علاقته الحميميّة بوالدته، ضمن فعلين متبادلين أحدهما متعلق بالولد وهو تقبيل جبين أمه، والثاني هو ردّ فعل الوالدة لهذا الفعل الصادق، بتمرير يدها بكل دفء وحنان على جبين ولدها، وهو سلوك يظل غائبا إلى حدّ كبير، خاصة في الآونة الأخيرة مع ظهور أفكار جديدة عن طريق التلاقح والتمازج الحاصل بين الأمة العربية المسلمة والأمم الأخرى، وذلك بفضل وسائل التواصل المختلفة والمتعددة والتي أصبحت متاحة للجميع، فبعد أن كان الأب في الأسرة والمعلم في المدرسة والفقيه في الكتاب هم الفاعلون في مجال الفعل التربوي والملقنون للقيم. أتت رياح التغيير فأصابت بُنَى المجتمع وأنماط الإنتاج وهياكل العلاقات الأسرية والاجتماعية والدولية، فانفتحت الحدود الواقعية والافتراضية، وأصبحت سوق القيم تتسع وتمتد حدودها يوما بعد يوم وبشكل مستمر...(9)، ولكن الكاتب نبّه إلى ذلك عن طريق هذه الفقرة السّرديّة ليؤكّد أنّ مثل هذه القيم المتأصّلة في المجتمع الجزائريّ المسلم لاتزال باقيّة، مما يوحي بمتانة العلاقات الأسريّة خاصّة بين الأبناء والآباء...

ومن المواقف الجديدة التي يسحّلها السّرد ويقدّمها على أنّها من صميم ما يمكن التّعويل عليه فنيّا في هذه الرّواية، موقف الوحدة والابتعاد عن الآخرين من خلال الاعتزال الإيجابي الذي يمهّد لنقاء القلب وصفاء السّريرة " شعرت بأنّني أصبحت الآن وحيدا.غاب أحبابي. نعم أنا الآن أكثر وحدة، ولكن هذا الشعور كان يسعدني أيضا. فالعزلة تحيي القلب وتنقيه من كل دنس، أبعدتني عن مخالطة الخلق وأرشدتني إلى طريق المحبة. لا شيء اليوم أصبح يخيفني أو يقلقني في هذه الحياة التافهة "(10)، إنه الانزواء الّذي اختارته هذه الشّخصيّة مرغمة، نظرا لعدم تمكنّها من التّواصل والتّفاهم مع من كانوا في يوم من الأيام أطفالا صغارا، وبعد أن غيّب الموت الأحبّة والأتراب، والملاحظ أن هذه الرؤية تتماشى مع يستقر في ذهن

المتصوفة، في كل زمان ومكان، من أن الخلوة واعتزال الناس سلوك إيجابي يؤتي ثماره في تحقيق الانقطاع إلى الله، وهو ما نلمسه من خلال التعريفات التالية : يقول الشيخ سليمان بن يونس الخلوتي: « الاعتزال هو الانفراد عن الخلق وإيثار مجالسة الحق وهي صفة أرباب الصفوة وأهل الوصلة...، ويرى الشيخ نجم الدين داية الرازي، أن العزلة هي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع...، بينما يؤكد الشيخ عبد الكريم الجيلي أن العزلة هي مقدمة الخلوة ليس إلا تمرين النفس على الانفراد ، وقلة الطعام والمنام والكلام، وحفظ القلب من الخواطر المشتتة المتعلقة بالأكوان لا مطلق الخواطر...(11)، وقد وظّفه الكاتب باعتباره سلوكا صوفيا أساسيا ليقدّم سياقا سرديّا، يحقق المتعة الجماليّة من جهة، ويساهم في البناء الرّوائيّ الرّصين الذي يؤسس لخطاب إعلامي هادف من جهة أخرى....

خاتمة:

نظرا لعالمية الرسالة الصوفية وتمكنها من نفوس كثير من المتدينين من المسلمين ومن غيرهم من أهل الكتاب قبلهم ممن يُعرفون بالقسيسين والرهبان والعبَّاد، وحتى من غيرهم، يمكن أن نخلص إلى حقيقة مفادها أن الفكر الصوفي يمثل مظهرا فطريا عرفته البشرية منذ نشأتها الأولى، إلا أن الاختلاف يكمن في المظاهر والكيفيات من جهة، وفي المعتقدات من جهة أخرى، ولذلك كانت رسالته عالمية جامعة، وقد استطاع محمد مفلاح، من خلال روايته هذه، أن يصل إلى هذه الحقيقة بفضل الحدث الصوفي الذي بُنيت عليه، حيث نجده يفتتحها بإهداء يعنونه بقوله " إلى الرّاحلين السبعة" مُردفا " وداعا يا أحبّتي..وداعا تمنيّت لو تأخّر سفركم ولكنه القضاء والقدر"(12)، وهي العبارة التي اختتم بها روايته أيضا، وفيها إشارة إلى أنّ الرواية برمّتها تختزل سفرا مباركا دون رجعة، تلتقي فيه أرواح السّابقين مع اللاّحقين، نظرا لعربون المحبّة الّذي ظلّ يجمعهم ويقرّبهم ويزيل أسباب فُرقتهم، كما يمكن أن يوحي ذلك أيضا، إلى تقارب الأرواح البشرية ذوات المكوّن الصوفي عبر تباعد الأزمنة وتباين الأمكنة، تجسيدا لفكرة العالمية الشاملة لهذا السلوك المعنوي المرتبط بفطرة الإنسان أينما كان وحيثما وجد...

الهوامش والإحالات:

(1) أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، مكتبة الخاجي، القاهرة، مصر، ص210.

(2) محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص15.

(3) عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، 1993، ص28.

(4) عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، 1996، ص43.

(5) محمد مفلاح، سفر السالكين، رواية، دار الكوثر للنشر والتوزيع، ط1 ، الجزائر، 2014، ص41 –ـــ 44.

(6) - Jean-Eve Tadié, Le récit poétique, PUF(1978), p6.

(7) الرواية ص88.

(8) الرواية ص99.

(9) ينظر: محمد الهاطي، الخطاب الصوفي وسؤال الفعل التربوي في السياق العالمي المعاصر، مقال منشور في مركز الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة بمركز الرابطة المحمدية للعلماء.

(10) الرواية، ص103.

(11) ينظر: المصطلح الصوفى عند الإمام الجيلى، حرف العين والغين، منتدى المودة العالمى ،الثلاثاء 19 يوليو 2011.

(12) الرواية، ص5.